واحرَّ قلباه للمتنبى
بين مشاعر الحب وصيحات العتاب

وقال المتنبى [*] يعاتب سيف الدولة: وأنشدها فى مَحْفَل من العرب. وكان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدحه شقّ عليه، وأحضر من لا خير فيه، وتقدم إليه بالتعرض له فى مجلسه بما لا يحب، وأكثر عليه مرة بعد مرة، فقال يعاتبه[**]:

"1-3" حب المتنبى لسيف الدولة وإهمال سيف الدولة له

1-واحَرَّ قَلْباهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمى وَحالى عِنْدَهُ سقَمُ (٦)

2-مالى أَكَتِّمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جسدى وتَدّعى حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلة الأَمَمُ (٧)

(*) أبو الطيب المتنبى (303-354هـ/ 915- 965م) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفى الكوفى الكندى: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربى. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعانى المبتكرة. وفى علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد فى الكوفة فى محلة تسمى "كندة" وإليها نسبته وتنبأ بالشام، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبيًّا وتنبأ فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ (أمير حمص ونائب الإخشيد) فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه. وفد على سيف الدولة بن حمدان وصاحب حلب، سنة 337 فمدحه وحظى عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى وطلب منه أن يوليه، فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه، وقصد العراق، فقرئ عليه ديوانه، وزار بلاد فارس فمر بأرجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات، ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة بن بويه الديلمى. وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى فى الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبى جماعة أيضًا، فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلامه مفلح، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول (فى الجانب الغربى من سواد بغداد). وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدى العينى، الذى هجاه المتنبى بقصيدته البائية المعروفة وهى من سقطات المتنبى. أما ديوان شعره فمشروح شروحًا وافية. وتبارى الكتاب قديمًا وحديثًا فى الكتابة عنه فألف الجرجانى الوساطة بين المتنبى وخصومه، وطه حسين مع المتنبى، وشفيق جبرى: المتنبى. انظر فى هذا: الأعلام، 115/1.

(**) هذه المقدمة للقصيدة والقصيدة نفسها، والشرح الذى أسفلها – نقلاً عن: ديوان المتنبى بشرح أبى البقاء العكبرى المسمى بالبيان فى شرح الديوان. ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى. بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت، 362/3- 374.

(٦) الشبم: البارد. والمعنى: يقول: واحرّ قلبى واحتراقه، واستحكام همّه بمن قلبه عنى بارد لا اعتناء له بى، ولا إقبال له علىّ، ومن بجسمى وحالى من إعراضه سقم يُوجب ألمهما، وشكاة تؤذن اختلافهما.

(٧) أكتّم: مبالغة فى الكتمان، برى جسدى: أنحله وأضناه. والمعنى: يقول: لأى شىء أخفى حبه؟ وغيرى يُظهر أنه يحبه، وهو بخلاف ما يضمر، وأنا مضمر من حبه، ما يزيد مضمره على ظاهره، ومكتومه على شاهده، والأمم تشركنى فى ادّعاء ذلك، بقلوب غير خالصة، ونيات غير صادقة، فينحَل جسمى بتقدّمى فى صدق ودّه،وتأخرى فيما يخصّنى من فضله.

3-إِنْ كانَ يجْمَعُنا حُبٌّ لِغُرَّتِهِ فَلَيْتَ أَنَّا بِقَدْرِ الحُبِّ نَقْتَسِمُ (١)

مدح المتنبى سيف الدولة بالنصر على الأعداء

4-قَدْ زُرْتُهُ وسُيُوفُ الهِنْدِ مغمدةٌ وَقدْ نظرْتُ إليْهِ وَالسُّيوفُ دَمُ (٤)

5-فكانَ أَحْسَنَ خلق اللهِ كُلِّهِم وكانَ أَحْسَنَ ما فى الأَحْسنِ الشِّيمُ (٣)

6-فَوْتُ العَدُو الّذى يَمَّمْتَه ظَفرٌ فى طَيِّهِ أسَفٌ فى طَيِّهِ نِعَمُ (٥)

7-قَدْ نابَ عَنْكَ شَدِيدُ الخَوْفِ واصْطَنَعتْ لَكَ المَهابَةُ ما لاَ تَصْنَعُ البُهَمُ (٦)

8-ألزَمتَ نفْسكَ شيْئا ليسَ يلزَمُها أن لا يُوَارِيَهُمْ أَرْضٌ وَلا علَمُ (٤)

9-أكُلَّما رُمْتَ جيْشا فانثنى هرَبًا تَصرَّفَتْ بِكَ فى آثارِهِ الهِمَمُ ( )

10-عَلَيْكَ هَزْمُهُمُ فى كُلّ مُعترَكٍ وَما عَلَيْكَ بِهِمْ عارٌ إذا انهزَمُوا ( )
( ) انهزَمُوا

11-أما تَرَى ظَفَرًا حُلْوًا سِوَى ظفرٍ تصافحَتْ فيهِ بِيضُ الهندِ وَاللِّمَمُ ( )
( ) وَاللِّمَمُ

---

(١) الغُرَّة: الطلعة، والوجه الحسن: الأغر. والمعنى: إن كان يجمعنا حبه والكَلَف بمودّته، فليت أنَّا نقتسم المنازل عنده بقدر ما نحن عليه من محبتنا الخالصة، وما نعتقده من مودّتنا الصادقة، فلا يبخسَن المخلص حقه، ولا يبذل للمتصنع برّه.

(٢) المعنى: يريد أنه قد شهده فى شدائد الحرب، وقد جَرَّبه فى الضيق والسعة، وامتحنه فى الأمن والخوف، فأعجبه كيف تقلب، وأحمده على أى حال تصرَّف.

(٣) الشيم: جمع شيمة، وهى الخليقة والصفة. والمعنى: يقول: لما بلوته فى حالتيه كان أحسن الخلق، وكانت أخلاقه أحسن ما فيه.

(٥) الظفر: الفتح والظهور على العدوّ، والنعم جمع نعمة، والمعنى: يقول فوت العدوّ الذى قصدته ففرّ عنك لاستحكام جزعه، ظفر ظاهر، واستعلاء بين، وإن كان ذلك الظفر فى طيه منك أسف على ما حرمته من إدراكه، وفى طىّ ذلك الأسف نعم بها صرف الله عنك مؤنة الحرب، وشدّة معاناة اللقاء، وحفظ عسكرك من جراح أو قتل، ففى هذا نعم من الله كثيرة.

(٦) المهابة: شدَّة الفزع،البهم: الأبطال، والمفرد: البُهْمة. والمعنى: يقول: قد ناب عنك خوف العدوّ لك، فذعره وهزمه، وصنعت لك فيه مهابتك، وبلغت لك مخافتك ما لا تصنعه الشجعان.

(٤) يواريهم: يسترهم، العلم: الجبل الطويل الوعر المسلك. والمعنى: يقول: قد ألزمت نفسك ما لم يكن يلزمها، وكلفتها ما لا يحقّ لك، من أن عدوّك لا يواريهم أرض تشتمل عليهم، ولا يسترهم عنك جبل يحول بينك وبينهم، وهذا غاية التكلّف.

( ) المعنى: يريد: كلما فرَّ جيش من جيوش الروم، وولَّى عنك هاربًا تصرَّفت بك همتك فى أثره، فلم يُرْضك انهزامهم دون أن ينالهم القتل، ويستحكم فيهم السيف.

( ) المعترَك: ملتقى الحرب. والمعنى: يقول: عليك أن تهزمهم إذا التقوا معك فى حرب، ولا عار عليك إذا انهزموا، فتحصَّنوا بالهرب ولم تظفر بهم.

( ) تصافحت: تلاقت بالصِّفاح، وهى السيوف، اللمم: جمع لِمَّة، وهى الشعر إذا ألم بالمنكب. والمعنى: يقول: ليس يحلو لك ظفر تناله، وأمل فى عدوّك تبلغه، إلا أن يكون ذلك بعد مصادمة

المتنبى يعاتب سيف الدولة بقدر من الجرأة

12-يا أعْدَلَ النَّاس إلاَّ فى مُعامَلَتى فِيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصْمُ وَالحَكَمُ (١)

13-أعِيذَها نَظَرَاتٍ مِنْكَ صادِقَةٍ أن تَحْسبَ الشَّحمَ فيمن شحمهُ وَرمُ (٢)

14- وَمَا انْتِفاعُ أخِى الدُّنْيا بِناظِرِهِ إذا اسْتَوَتْ عِنْدَه الأنْوَارُ وَالظُّلَمُ (٣)

وقتال، ومجالدة ونزال، وبعد مصافحة سيوفك رءوسهم، وتباشر سلاحك خيولهم، فهذا هو الظفر الحلو عندك.

(١) الخصام: المخاصمة، والخصم: يقع على الواحد والجماعة. والمعنى: يقول لسيف الدولة: يا أعدل الناس فى أحكامه، وأكرمهم فى أفعاله إلا فى معاملتى، فإنه يخرجنى عن عدله، ويضيِّق علىّ ما قد بسط من فضله، فيك خصامى وتعبى، وأنت خصمى وحكمى، فأنا أخاصمك إلى نفسك، وأستدعى عليك حكمك.

(٢) الورم: الانتفاخ فى العضو من ألم يصيبه. والمعنى: يريد: أن نظراتك صادقة إذا نظرت إلى شىء عرفته على ما هو عليه، فلا تغلط فيما تراه، ولا تحسب الورم شحمًا، وهذا مثل، يريد: لا تظنّ المتشاعر شاعرًا، كما يحسب السقم صحة، والورم سمنًا.

(٣) المعنى: يجب أن تميز بينى وبين غيرى ممن لم يبلغ درجتى، كما تميز بين النور والظلمة.

فخر المتنبى بنفسه

15-أنا الّذِى نَظرَ الأعمَى إلى أدَبى وَأسمَعَتْ كلِماتى مَنْ بِهِ صَمَمُ (١)

16-أنامُ مِلءَ جُفونى عَنْ شَوَارِدِها وَيَسْهرُ الخلْقُ جَرَّاها ويَخْتَصِمُ (٢)

17-وَجاهِلٍ مدَّهُ فى جهلِهِ ضَحِكى حَتَّى أتَتْهُ يدٌ فرَّاسَةٌ وَفَمُ (٣)

18-إذا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللّيْث بارِزَةً فَلا تظَنَّنَّ أنَّ اللّيْثَ مُبْتَسمُ (٤)

19-وَمُهْجَةٍ مُهْجتى مِنْ هَمِّ صاحِبِها أدْرَكْتُها بِجَوَادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ (٥)

20-رِجلاهُ فى الرَّكضِ رِجلٌ وَاليدان يد وَفِعْلُهُ ما تُرِيدُ الكَفُّ وَالقَدَمُ (٦)

21-وَمُرْهَفٍ سِرتُ بينَ الجَحْفلَينِ به حتى ضرَبتُ وَموْجُ الموْتِ يلتَطِمُ (٧)

22-فالخَيلُ وَاللّيلُ وَالبَيْداءُ تَعْرِفُنى وَالضَّربُ وَالطّعنُ والقِرطاسُ وَالقَلَمُ (٨)

---

(١) المعنى: أى أنا الذى شاع أدبى، واستبان موضعى، فثبت ذلك فى العقول، وتمكن فى القلوب، ورآه من لا يبصره، وأسمعت كلماتى: أى قصائدى .. من لا يسمع.

(٢) الشوارد: النوافر، من قولهم، شرد البعير إذا نفر، ويقال: فعلت ذلك من جرَّاك؛ أى من أجلك. والمعنى: يقول: أنام ساكن القلب، متمكّن النوم، لا أعجب بشوارد ما أبدع، ولا أحفل بنوادر ما أنظم، ويسهر الخلق فى تحفظ ذلك وتعلمه، ويختصمون فى تعرّفه وتفهمه، فأستقلّ منه ما يستكثرون، وأغفل عما يغتنمون.

(٣) أصل الفَرْس: دقّ العنق، ومنه سمّى الأسد فرَّاسًا. والمعنى: يقول: رُبّ جاهل خدعه تزْكى له فى جهله، وضحكى منه، حتى افترسته بعد زمان فأهلكته.

(٤) النيوب: جمع ناب، والليث: الأسد. والمعنى: يقول: إذا كشّر الأسد عن نابه، فليس ذلك تبسمًا، وإنما هو قَصْد للافتراس وهذا مثل ضربه، يعنى أنه وإن أبدى بشْره للجاهل، فليس هو رضا عنه، فإن الليث إذا كشّر لا تظنه مبتسمًا، وإن ذلك أقرب لبطشه.

(٥) المعنى: يقول: ربّ إنسان طلب نفسى، كما طلبت نفسه، فأدركتها على جواد ظهره حرم، لأمن راكبه؛ لأنه لا يُقْدَر عليه، فكأنه حرم.

(٦) المعنى: يقول: هو صحيح الجرى، يصف استواء رفع قوائمه، وصحة جريه، فكأن رجليه رجل واحدة؛ لأنه يرفعهما معًا، ويضعهما معًا. وكذلك اليدان. وهذا الجرى يسمَّى النقال والمناقلة، وفعله ما تريد الكف بالسوط، والرجل بالاستحثاث، فهو بجريه يغنيك عنهما.

(٧) المرهف: السيف الرقيق الشفرتين، الجحفلان: الجيشان العظيمان، المعنى: يقول: رُبّ سيف رقيق الحدّين سرت به بين الجيشين العظيمين، حتى قاتلت به والموت غالب، تلتطم أمواجه، يضطرب بحره. واستعار الموج لكتائب الحرب.

(٨) البيداء: الفلاة البعيدة عن الماء، القرطاس: الكتاب فيه الكتابة، ويجمع القراطيس. والمعنى: يقول: الليل يعرفنى لكثرة سُراى فيه، وطول ادّراعى له، والخيل تعرفنى لتقدّمى فى فروسيتها، والبيداء تعرفنى بمداومتى لقطعها، واستسهال أصعبها، والحرب والضرب يشهدان بحذقى لهما وتقدُّمى فيهما، والقراطيس تشهد لى لإحاطتى بما فيها، والقلم عالم بإبداعى فيما يقيِّده.

23-صحِبتُ فى الفلَواتِ الوَحشَ منفَرِدًا حتى تَعَجَّبَ مِنِّى القُورُ وَالأكَمُ (ـ)

عودة المتنبى لعتاب سيف الدولة بجرأة شديدة

24-يا مَنْ يَعِزَّ علينا أن نُفارِقَهُمْ وجدَانُنا كُلَّ شىء بعدَكُمْ عَدَمُ (ـ)

25-ما كان أخْلَقَنا منكم بتَكْرِمَةٍ لو أنَّ أمرَكُمُ من أمْرِنا أمَمُ (ـ)

26-إنْ كانَ سرَّكُمُ ما قالَ حاسدُنا فما لجُرْحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ (ـ)

27-وبيننا لو رَعَيْتُم ذاكَ معرفَةٌ إن المعارفَ فى أهلِ النُّهى ذِمَمُ (ـ)

28-كم تطلبُونَ لنا عيبًا فَيُعْجِزُكُم ويكرهُ اللهُ ماتأتونَ والكَرَمُ؟ (ـ)

29-ما أبعدَ العيبَ والنُّقْصَانَ عن شَرَفى أنا الثُّرَيَّا وذانِ الشيبُ والهَرَمُ ( )

30-ليتَ الغمامَ الذى عِنْدِى صواعِقُه يُزيلُهُنَّ إلى مَنْ عِنْدَه الدِّيَمُ؟ ( )

قرار المتنبى بالرحيل بسبب التجاهل وسوء المعاملة

(ـ) القُور: الأكمة. والمعنى: يقول: سافرت وحدى، فلو كانت الجبال تتعجب من أحد، لتعجبت منى لكثرة ما تلقانى وحدى، فصحبت الوحش فى الفلوات، منفردًا بقطعها، مستأنسًا بصحبة حيوانها، حتى تعجب منى سهلها وجبلها، وقورها وأكمها.

(ـ) المعنى: يريد: يا من يعزّ علينا مفارقته بما أسلف إلينا من فضله، واستوفرنا من الحظ بقربه، وجداننا كل شىء طائل بعدكم عدم لا نُسرُّ به ومحتقر لا نبتهج له، يريد: لا يخلفكم أحد.

(ـ) ما أخلقه: ما أولاه وأجدره، الأمم: القصد. والمعنى: يقول: ما أخلقنا ببرّكم وتكرمتكم، وإيثاركم، لو أن أمركم فى الاعتقاد لنا على نحو أمرنا فى الاعتقاد لكم، وما نحن عليه من الثقة بكم.

(ـ) المعنى: يقول: إن كان ما فعله الحاسد لنا، واختلقه الواشى بيننا، مرضيًا لكم، مستحسنًا عندكم، فما يتشكّى الجرح إذا أرضاكم مع شدّة وجعه، ولا يُكْره مع استحكام ألمه، حرصًا على موافقتكم، وإسراعًا إلى إرادتكم.

(ـ) النهى: العقول، المعارف: جمع معرفة، الذمم: العهود، والمفرد: ذمة. والمعنى: يقول: إن لم يجمعنا الحبّ فقد جمعتنا المعرفة، وأهل العقل يراعون حق المعرفة، والمعارف عندهم عهود وذمم لا يضيعونها.

(ـ) المعنى: يقول: أنتم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم وجوده. وهذا تعنيف لسيف الدولة على إصغائه إلى الطاعنين عليه، ويكره الله ما تأتون من ذلك.

( ) ذان: إشارة إلى العيب والنقصان، الثريا: أنجم مجتمعة فى السماء، الهرم: الكبر والعجز. والمعنى: أنا بعيد عن العيب والنقيصة، كبعد الثريا من الشيب والكبر.

( ) الغمام: السحاب، الصواعق: جمع صاعقة، وهى قطعة من نار تسقط بأثر الرعد الشديد، الديم: جمع ديمة، وهى مطر يدوم مع سكون. والمعنى: ليته أزال الشر الذى عندى إلى من عنده النفع.

31-أرى النَّوى تقتضينى كُلَّ مرحلةٍ لا تَسْتَقِلُّ بها الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ (أ)

32-لئنْ تَرَكْنَ ضُمَيرًا عن مَيَامننا ليحْدُثَنَّ لمنْ ودَّعتَهُمْ نَدَمُ (ب)

33-إذا ترحَّلْتَ عَنْ قومٍ وقد قَدَرُوا أنْ لا تُفَارِقَهُم فالراحلون هُمُ (ج)

34-شرُّ البلادِ بلادٌ لا صديقَ بها وشرُّ ما يكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ (د)

35-وشَرُّ ما قنصتْهُ راحتِى قَنْصٌ شُهْبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ (هـ)

36-بأىِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعْنِفَةٌ تجوزُ عندك لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ (و)
عَجَمُ (و)

37-هذا عتابُكَ إلا أنَّه مِقَةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنَّه كَلِمُ ( )

حب المتنبى لسيف الدولة وإهمال سيف الدولة له

هذه القصيدة – وكما وضعنا لها عنوانًا – تدور حول حب المتنبى لسيف الدولة وعتابه إياه، وبقدر قوة حبه له يكون صدقه فى عتابه، وجرأته فى لومه أيضًا.

(أ) النوى: البعد، الوَخْد والرَّسْم: ضربان من السير، والوخادة من الإبل: التى تسير بالوخد، واحدتها: واخدة، والرسم: التى تسير بالرَّسيم، واحدتها: رَسُوم، وراسيم. والمعنى: أرى النوى التى أريدها، والرحلة التى أعتقدها تقتضينى تجشم كل مرحلة وافية، لا تستبدّ بها الإبل لبعد منالها، ولا تطيقها لشدّة أهوالها.

(ب) ضمير: جبل على يمين طالب مصر من الشام، وهو قريب من دمشق. والمعنى: يقول: إن قصدت مصر ليحدثن لمن ودّعتهم ندم على مفارقتى لهم، وأسف على رحيلى عنهم، يشير بذلك إلى سيف الدولة أنه يندم على فراقه، فكان كما قال.

(ج) المعنى: يقول: إذا سرت عن قوم وهم قادرون على إكرامك بارتباطك، حتى لا تحتاج إلى مفارقتهم، فهم المختارون للارتحال.

(د) يصم: يعيب، والوصم: العيب، والجمع: الوُصوم. والمعنى: يقول: شر البلاد بلاد لا يوجد فيها من يؤنس بودّه، ويسكن إلى كريم فعله، وشرّ ما كسبه الإنسان ما عابه وأذله. يريد أن هبات سيف الدولة وإن كثرت مع جلالتها وسعتها، لا تعادل تقصيره فى حقه، وإيثاره لحساده.

(هـ) المعنى: وشر ما قنصه الصائد وظفر به، قنص يَشْركه فيه البزاة الشهب مع رفعتها، والرخم مع سقاطتها ودناءتها وضعتها.

(و) زِعنفة: جمعها زعانف وهم اللئام السُّقَّاط من الناس. والمعنى: يقول لسيف الدولة: بأى لفظ تقول الشعر أراذل الناس لا عرب ولا عجم، يريد: ليست لهم فصاحة العرب، ولا تسليم العجم، فليسوا شيئًا.

( ) المقة: المحبة والودّ، الكلام: يقع على القليل والكثير، والكلم: جمع الكَلِمة. والمعنى: هذا عتابك، وهو وإن أمضّك وأزعجك، محبة خالصة، ومودّة صادقة، فباطنه غير ظاهره، كما أنه قد ضمّن الدرّ وإن كان كلمًا معهودًا فى ظاهر لفظه.

ولعل المتنبى يتشفَّع بهذا الحب الصادق منه لسيف الدولة فى توجيه عتابه له، بل إغلاظه فى العتاب فى مقاطع معينة من قصيدته خاصة حين نقترب من نهايتها.

وفى رأيى أن المتنبى تلطَّف فى توجيه العتاب مع أبيات القصيدة الثلاثة الأولى، ومزجه بمشاعر الحب الكبيرة، فبدا العتاب فى مساحة محدودة أمام مشاعر الحب الكبيرة التى يظهرها شاعرنا لسيف الدولة الحمدانى. وهذا حسن استهلال منه، فهو لا يريد أن يجعل مشاعر الغضب تسيطر عليه من تجاهل سيف الدولة له، وتفضيله غيره ممن هم أقل شأنًا منه فى موهبته واستماعه لوشايات خصوم المتنبى وتصديقه لها.

ولذا بدأ مقطعه الأول من قصيدته هذه بمحاولته السيطرة على مشاعر الغضب هذه إلى حد كبير، وجعل مشاعر الحب الصادقة التى تظهر على السطح، يكون لها الكلمة، لعله بهذا يرقق قلب سيف الدولة نحوه، ويجعله يستمع لعتابه وتفاصيل هذا العتاب – كما سنرى فى أبياته التالية – بصدر رحب، ويعذر الشاعر إن تجرَّأ عليه فى أسلوب العتاب.

وأول بيت فى القصيدة بل أول كلمة - صرخة من القلب تعبِّر عن جرح كبير أصاب صدر المتنبى من تغير سيف الدولة عليه، حتى إن هذا التحوّل قد أمرضه، ومما يزيد فى حزن شاعرنا أن سيف الدولة يعلى فى مجلسه من قدر هؤلاء المنافقين الذين يظهرون له حبًّا لا حقيقة له، وتكون أمنية شاعرنا أن يقتسم هو والمحيطون المنافقون بسيف الدولة حبه وإكرامه على قدر الحب الحقيقى الذى يبطنه هو وهؤلاء المنافقون لسيف الدولة.

ولكن هيهات فيبدو أن سيف الدولة قد استسلم لوشايات هؤلاء المنافقين، ويبدو أن خيوط الاتصال بين المتنبى وسيف الدولة قد عُبث بها بشكل يصعب إصلاحه، وصار سيف الدولة فى حالة تصديق لكل ما يرمى به هؤلاء المنافقون المحيطون بسيف الدولة المتنبى به من أكاذيب وافتراءات لتشويه صورته عند سيف الدولة.

ونلاحظ فى هذه الأبيات الثلاثة الأولى تكرار كلمة الحب أربع مرات، وذكر كلمة القلب فى أوله، مما يدل – كما قلنا – على أن المتنبى كان حريصًا على أن يظهر مشاعر الحب الصادقة منه نحو سيف الدولة،

عسى أن تعود خيوط الاتصال بينهما ويفيق سيف الدولة من أكاذيب الواشين.

"4-11" مدح المتنبى سيف الدولة بالنصر على الأعداء

ولكن المتنبى يدرك أن هذه المشاعر الصادقة التى يذكرها فى حب سيف الدولة والممزوجة بذلك العتاب الرقيق – فى بداية القصيدة – ليست كافية للدخول سريعًا فى المكاشفة الصريحة من المتنبى فى مخاصمة سيف الدولة لانقلابه عليه، ولتغيره نحوه؛ ولهذا رأى بعد هذا الاستهلال العاطفى المقصود فى بداية قصيدته أن يخلص منه لامتداح سيف الدولة، وهو يركز فى مديحه له على انتصاراته على أعدائه، فى نحو ثمانية أبيات، ويذكر خلالها فى شطر حسن خلقه، ولكن تظل الصورة الواضحة فى مديحه إياه، تركيزه على شجاعته وقهره الأعداء.

وسنعلق على خصوصية هذا المديح والغرض منه، ولكننا نقول قبل ذلك: إن المتنبى بذكره المديح بعد الأبيات الثلاثة الأولى المعبِّرة عن صدق حبه لسيف الدولة قد حقق هدفين:

الهدف الأول هو الاستمرار فى ترقيق قلب سيف الدولة نحوه لعله يفيق من تجاهله للمتنبى، ويفيق من إغواء الواشين له عنده.

والهدف الثانى الذى حققه المتنبى من هذا المديح هو عرضه مواهبه فى غرض المديح لسيف الدولة وهو يمدحه؛ فكأنه يقول له: من مثلى يمدحك بهذا المديح فيمن حولك من المتشاعرين أو الشويعريين، أو حتى الشعراء أصحاب أنصاف المواهب؟ راجع نفسك .. قبل أن تفقد من يمدحك بمثل هذه القصائد المعجزة(*).

أقول لعل المتنبى قصد هذا بمديحه سيف الدولة الذى ذكره مباشرة بعد أبياته الثلاثة الأولى الاستهلالية لقصيدته هذه.

وقد ركَّز المتنبى على مدح سيف الدولة بقهره للأعداء وكثرة انتصاراته عليهم؛ لأن سيف الدولة كان فى حروب دائمة مع الروم، وكان كثيرًا ما ينتصر عليهم. ومثل هذا المديح لأمير مشغول دائمًا

(*) هذا على حدّ وصف أبى العلاء المعرِّى لشعر المتنبى حين سمّى شعره: معجز أحمد.

بالحرب مرضٍ جدًّا له، بل هو مديح بلا شك يثير إعجابه، وفى الوقت نفسه يثبِّتُ ثقة جنوده الذين يحاربون معه فيه، ويكون رسالة شديدة التحدِّى لأعدائه إن وصلهم هذا الشعر وترجموه، ولعله يكون له تأثير معنوى فى إضعاف هممهم. خاصة أن المتنبى يبالغ فى وصف قوة سيف الدولة، وشدّة قهره لأعدائه؛ حتى إنه صار ينتصر عليهم بفزعهم منه.

ويذكر المتنبى خلال مديحه سيف الدولة أنه – أى سيف الدولة – لا يعجبه انسحاب هؤلاء الأعداء، بل هو يرغب فى تتبعهم واستئصال آخرهم، ولا يحلو له إلا النصر فى ساح المعارك بقطع رءوس الأعداء، أما أن يفروا منه هربًا لخوفهم من بطشه، فهذا ما لا يعتدّ به سيف الدولة ولا يعدّه نصرًا.

وفى هذه اللوحة العسكرية التى رسمها المتنبى لسيف الدولة مبالغة واضحة، ولكنها مقبولة فى ذلك العصر؛ لشدّ الهمم فى نفوس المسلمين الذين كانوا يحاربون الروم مع سيف الدولة فى معارك متصلة متتالية.

وأيضًا هذه المبالغة فى المديح تتفق مع خط المبالغة الذى يشمل القصيدة من بدايتها لنهايتها، فالمتنبى يصور فى بدايتها انفجار مشاعره المحبة لسيف الدولة مع أنّة ألم عميقة لتجاهله إياه وتصديقه وشايات الواشين فيه، ثم بعد ذلك يصوّر لنا بشكل مبالغ فيه قوة سيف الدولة الحربية، وقهره لأعدائه برعبهم منه قبل أن يواجهوه فى أرض المعركة. ثم بعد ذلك يبالغ فى حديثه عن نفسه خاصة حين وصفه لفروسيته حتى إنه ليصوِّر لنا نفسه شبيهًا بالفرسان الصعاليك – فى الجاهلية – الذين اعتادوا حياة الصحراء مع وحوشها كما سوف نرى.

والملحوظة الأخيرة التى نقولها حول مديح المتنبى لسيف الدولة أنه مدحه ببطولاته العسكرية بشكل عام، دون أن يحدّد معركة معينة انتصر فيها على أعدائه.

وذلك كما قلنا لأن معارك سيف الدولة مع الروم كانت كثيرة متتالية، فهو أراد أن يصف طبيعة المعارك ويصوِّر حال سيف الدولة فيها بشكل أقرب للخيال – أو على الأقل للمبالغة – حين صوره – كما قلنا – بالبطل المرعب الذى يخشاه أعداؤه بمجرد سماعهم أنه يقترب منهم، فيفرون منهزمين.

" 12-14" المتنبى يعاتب سيف الدولة بقدر من الجرأة

وبعد أن استرضى المتنبى سيف الدولة بمديحه إياه، وقبل ذلك بذكره مشاعره الجياشة الصادقة نحوه – فإنه يتجرأ فى عتابه جرأة أشد مما رأينا فى مستهل قصيدته، بل إنه يصرِّح له بأنه يعدل فى حكمه مع كل الناس إلا معه فإنه يظلمه، ويواجهه بأنه يسىء تقدير الأمور حين يميّز المنافق المخادع على الصادق المخلص.

ويوجّه له فى البيت الرابع عشر انتقادًا شديدًا يُغلِّفه بحكمة من حكمه: فإنه لا يفيد النظر صاحبه إن كان لا يستطيع أن يميز بحق بين النور والظلمة، وهذا على سبيل الاستعارة؛ يعنى أنه ما قيمة العقل الذى تملكه يا سيف الدولة إن كان لا يستطيع أن يميز بين الأخيار والأشرار، وبين المخلصين والمنافقين، وبين الصادقين والمخادعين.

لا شك أن هذا البيت يحمل قدرًا من الهجوم على سيف الدولة، وليس مجرد العتاب الرقيق كما رأينا فى مستهل قصيدة المتنبى.

إذن لقد بدأ المتنبى بهذه الأبيات يصعِّد من وتيرة عتابه، ويجعله ممزوجًا بشىء من الحدة والغضب، لعل سيف الدولة أن يعى أن هذا الغضب فى العتاب صادر عن مشاعر حب عبَّر عنها شاعرنا فى بداية قصيدته، وأيضًا هذا الغضب صادر عن شاعر قدير بيَّن مواهبه فى مديح سيف الدولة بما لا مثيل له .. فحق له إذن أن يترك لمشاعر الغضب فى العتاب أن تخرج من صدره، وسيتحملها سيف الدولة للأسباب السابقة؛ ولأنه تربطه بالمتنبى صداقة، فلم يكن المتنبى مجرد شاعر فى بلاط سيف الدولة بل كان صديقًا محبًّا له؛ ولذلك استعار المتنبى من قاموس الغزل بعض مفرداته وهو يمدح سيف الدولة؛ ليعبر عن حبه لسيف الدولة وصدق مشاعره الصادقة نحوه كما رأينا فى الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القصيدة.

" 15- 23" فخر المتنبى بنفسه

وعلى الرغم مما رأيناه فى الأبيات الثلاثة السابقة من حدة من المتنبى فى عتاب سيف الدولة، فإنه لم يتمادَ فى هذا العتاب بل خرج منه سريعًا – وسيعود إليه فيما بعد –؛ لأن التمادى فيه ربما يستثير غضب سيف الدولة، ويجعل رسالة العتاب الموجهة منه إليه فى هذه القصيدة تفقد معناها، فتصبح تهديدًا منه له وانتقاصًا لقدره.

وقد رأى المتنبى فى المقطع التالى من قصيدته – أن يدافع عن نفسه أمام انتقاص سيف الدولة له، وتصديقه أقوال الواشين والمحيطين به فيه .. وفى الوقت نفسه أراد أن يجعل لعتابه العنيف الذى ذكر قدرًا منه فى الأبيات السابقة – وسيتابع عرضه فيما بعد فى قصيدته – ظهيرًا يستند إليه أمام الموجه إليه هذا العتاب – وهو سيف الدولة – فاستعان بذكره مواهبه فى الشعر والفروسية.

وبدأ بالحديث عن موهبته فى الشعر؛ لأنها الأبرز فى حياته، والتى لا يساويه فيها أحد فى عصره – على الأقل – ثم تحدث عن قدراته الكبيرة فى الفروسية والقتال.

وقد ذكرنا أن طابع الفخر الذاتى هنا يغلب عليه المبالغة والمغالاة، ولعل طبيعة المتنبى المحب لذاته الشاعرة بعظمتها وراء هذا الفخر الذاتى المشحون بالمغالاة فى تقدير الذات. وقد فخر شاعرنا بنفسه بمثل هذه الطريقة فى أبيات أخرى عديدة له فى قصائد أخرى، ولكن يبدو أن الموقف هنا – بشكل خاص – فرض على المتنبى مثل هذا الحديث عن النفس بهذه الطريقة؛ فقد أرادا أن يؤكد – لنفسه ولغيره – مكانته الكبيرة فى عالم الشعر والفروسية فى مواجهة انقلاب سيف الدولة عليه وتهوينه أمره.

وأيضًا لعل المتنبى بهذا الفخر أراد أن يُعرِّف سيف الدولة بأهميته، وأنه سيفقد شخصًا عظيمًا إن تركه يرحل عنه بعد أن صدق وشايات الواشين فيه.

والظاهر للنظر فى هذا المقطع – إلى جانب ما سبق – تكرار المتنبى فيه ضمير المتكلم كثيرًا، مما يوحى بإحساسه الشديد بالعظمة، وإظهاره تفوقه على كل منافسيه فى مجال الشعر والفروسية أيضًا.

وأيضًا يلاحظ فيه مزجه هذا الفخر الذاتى بالحكم حتى ليوحى لنا بهذا الأسلوب أن ما يقوله عن نفسه حقائق لا تقبل الجدال، ومن ثمّ يكون فى هذا رسالة موجهة – بشكل خاص – لسيف الدولة لعله يعيد النظر فى شأن تجاهله للمتنبى وإعراضه عنه.

" 24 – 30" عودة المتنبى لعتاب سيف الدولة بجرأة شديدة

وفى هذا المقطع يعود المتنبى – بعد أن أرضى نفسه بذكره مواهبه وجليل صفاته – لعتاب سيف الدولة، ولكنه – فى هذا المقطع – يزيد من وتيرة العتاب – بشكل أعلى مما رأيناه فيما سبق – وقد جرَّأه على ذلك إحساسه الشديد بنفسه مما ذكره فى المقطع السابق عن نفسه، فكيف لنفس هذا قدرها، ولشخص هذه مواهبه أن ينتقص بهذا الشكل، وأن يُقَدَّم صغار الناس عليه، ويُتجاهل من قبل سيف الدولة.

من هنا كانت وتيرة العتاب فى هذا المقطع أشد – بل لقد وصلت لذروتها – ومن الواضح أن المتنبى يعيد نغمة العتاب من حين لآخر فى أبيات قصيدته، ولكنه فى كل مرة يستدعى فيه هذه النغمة يزيد فى حدته، ويكون ما قبلها مهيئًا لهذه الحدة كما رأينا فيما سبق.

وفى هذا المقطع يمزج المتنبى بهذا العتاب الحاد فخره بنفسه، كأنه يرى نفسه كفئًا لسيف الدولة فى تقديم هذا العتاب الحاد إليه.

والأبيات الثلاثة الأخيرة – من هذا المقطع – تصوّر بشكل واضح كيف أن سيف الدولة يحتال فى البحث عن خطأ أو عيب للمتنبى، ولكنه لا يستطيع إيجاد ذلك؛ لأن المتنبى منزه – فى رأى نفسه – عن العيب والنقصان كما أن الثريا لا يصيبها الهرم.

ومع ذلك يستمر سيف الدولة فى استعداء المتنبى بإرسال صواعق غضبه وإساءاته إليه، فى حين يرضى عن الواشين المنافقين ويجود عليهم بإحسانه.

إنها جرأة شديدة فى العتاب، ومغالاة فى الفخر بالنفس والإعجاب بالذات، ولعل هذه الجرأة فى العتاب لا يرضى عنها سيف الدولة مهما كان التمهيد الذى سبقها، ومهما كانت الحكم التى تصاغ من خلالها هذه المعانى؛ فتكون كالمرشح لإثباتها وصحتها.

وفى هذا المقطع يشير المتنبى لاستعداده للرحيل عن بلاط سيف الدولة، ويبدى أسفه على ذلك، ولكنه – على حد قوله – مضطر لذلك،

إزاء معاملة سيف الدولة السيئة له كما يصوّرها فى أبيات هذا المقطع من قصيدته.

ولكنه فى المقطع التالى – والأخير – يذكر من بدايته أن الرحيل عن بلاط سيف الدولة أمر حتمى.

"31- 37" قرار المتنبى بالرحيل بسبب التجاهل وسوء المعاملة

يكرر المتنبى فى الأبيات الثلاثة الأولى من هذا المقطع معنى الرحيل، ويشعرنا أن الرحيل عن سيف الدولة وبلاطه هو السبيل الوحيد أمامه، بعد أن توترت العلاقة بينهما بهذا القدر الشديد الذى تظهره هذه القصيدة.

ولعل الشاعر كان بالفعل – قبل كتابته هذه القصيدة – قد عقد العزم على الرحيل إلى مصر، تاركًا بلاط سيف الدولة، ولكنه كان يأمل – ولو أملاً ضعيفًا – بقصيدته هذه أن تهز قلب سيف الدولة فتصفو نفسه إليه، ويراجع مواقف الواشين به عنده.

ولكن سيف الدولة لم يفعل، ولعل حدَّة المتنبى فى عتابه خاصة مع منتصف القصيدة إلى المقطع قبل الأخير منها – كانت سببًا آخر فى صدّ سيف الدولة عنه، واستمرار غضبه عليه، إن لم يكن هذا الغضب قد زاد بعد سماعه هذه القصيدة، وإن كان قد ندم بالفعل بعد ذلك بعد أن تركه المتنبى وسافر إلى مصر فى رحاب "كافور الإخشيدى".

وفى هذا المقطع يواصل المتنبى عتابه لسيف الدولة، ولكنه هنا يعود من حيث ابتدأ، فيخفف من نبرته، وكان قبل هذا المقطع الأخير من قصيدته كلما خطا للأمام فيها أعلى من نبرة حدة العتاب بها، حتى إذا ما وصل لنهايتها فى هذا المقطع عاد من حيث ابتدأ؛ فرقق فى عتابه مما يجعل هذه القصيدة كأنها معزوفة موسيقية تبدأ هادئة ثم تتصاعد الأنغام بها إلى أن تصل لفورتها، ثم تعود الأنغام مع نهايتها للهدوء من جديد.

وهذا التتابع والتصعيد ثم العودة للهدوء فى نغمة العتاب بها يجعلها قصيدة مشحونة بالإحساس الدرامى.

والملاحظ أن المتنبى فى هذا المقطع يمزج بين عدة أمور: عتابه لسيف الدولة وإظهار حبه له، وفخره بذاته من خلال تباهيه بشعره – كما نرى في آخر بيت من هذه القصيدة –، وسخريته من خصومه الذين رآهم لئامًا سُقَّاطًا ومتشاعرين أقزامًا أمام عملقته فى عالم الشعر.

ففى هذا المقطع جمع المتنبى كل ما ذكره فى المقاطع السابقة، وركَّز على عتابه سيف الدولة، ولكنه هنا – كما قلنا – لا يسرف فى الحدة فى العتاب، بل يعود للرقة والوداعة – كما فى أول قصيدته – لعل سيف الدولة أن يرق له، ويتمسّك به قبل أن يبدأ رحلة خروجه من بلاطه وهجره لدولته وصحبته.

ويختم المتنبى قصيدته بهذا البيت الذى يصوّر به عتابه الرقيق لسيف الدولة، وفخره بشعره الذى طالما كسا به سيف الدولة لآلئ ثمينة من مديحه يقول:

هذا عتابك إلا أنه مِقَةٌ قد ضُمِّن الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ